المقومات الإبستمولوجية والمرجعية الديداكتيكية لتدريس الجغرافيا المدرسية بالمغرب

الباحث عبدالسلام الصالحي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
أستاذ زائر بالمركز التربوي الجهوي لجهة الرباط سلا القنيطرة، فرع القنيطرة
الباحث بنعيسى الرامي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
أستاذ زائر بالمركز التربوي الجهوي لجهة الرباط سلا القنيطرة، فرع القنيطرة
المغرب

ملخص

تطرح هذه الدراسة إشكالية مزدوجة تمت معالجتها من مدخلين:

يتناول المدخل الأول نظرة معرفية للجغرافيا من جانب ابستمولوجي على مستوى النشأة والتطور والسؤال والموضوع، حيث تم رصد بعض ملامح تطور الفكر الجغرافي سواء على مستوى الموضوع أو المنهج من خلال الوقوف على مظاهر التحول الذي عرفته الجغرافيا من الجغرافيا التقليدية أو الكلاسيكية التي تهتم بوصف الظواهر الطبيعية والبشرية لدوافع استكشافية أو دينية أو توسعية، إلى الجغرافيا الجديدة أو الحديثة والتي تتميز بتفسير العلاقات التفاعلية بين الظواهر الجغرافية الطبيعية والبشرية وذلك باستعارتها الأساليب الرياضية والإحصائية لدوافع علمية، دون إغفال انفتاحها، وبالتالي تأثرها بباقي العلوم الطبيعية والاجتماعية. وقد كان من نتائج ذلك أن برزت بالدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية مدارس جغرافية أغنت الإنتاج الفكري الجغرافي.

أما المدخل الثاني فيتعلق بالمرجعية الديداكتيكية للجغرفيا، باعتبارها مادة دراسية في المنهاج التربوي المغربي والذي دعا إلى تبني مرجعيات ديداكتيكية لتدريس المواد، ومنها مادة الجغرافيا التي اعتمدت اقتراح الأستاذ محمد زاكور سنة 1990. ويستمد هذا النموذج أهميته في كونه يقترح على المهمتين بتدريس الجغرافيا أداة للتفكير والفعل تسعى إلى تطوير العملية التربوية نظريا وعمليا وذلك في علاقة وتكامل مع مكاسب البيداغوجيا المعاصرة ومع خصوصيات المادة.وقد تمت مقاربته عبر بيان المقومات الديداكتيكية لتدريس الجغرافيا وفقا للأسس الابستمولوجية للمادة وخطوات النهج الجغرافي.

الكلمات المفتاحية: الجغرافيا، الديداكتيك، ديداكتيك الجغرافيا، الابستمولوجيا.

Abstract

This study raises a double problem, which has been addressed through two approaches:

The first approach deals with a cognitive vision of geography from an epistemological point of view at the level of emergence, development, question and object. Some characteristics of the development of geographical thought have been analyzed, both thematically and methodologically, focusing on the aspects of the transformation that geography has undergone from traditional or classical geography, which is interested in the description of natural and human phenomena for exploratory, religious or expansionist reasons, to the emergence of new or modern geography. The latter is distinguished by its interpretation of the interactive relationships between natural and human geographical phenomena, relying on mathematical and statistical methods for scientific reasons, without neglecting its openness, and thus influenced by the rest of the natural and social sciences. As a result, various schools of geography emerged in European countries and the United States of America, contributing to the enrichment of geographical intellectual production.

The second approach concerns the didactic reference of geography, as a discipline of study in the Moroccan educational curriculum, which called for the adoption of didactic references for the teaching of subjects, including geography, which adopted the proposal of Professor M'hamed Zakour in 1990. This model derives its importance in that it proposesto the responsible of teaching geography a tool for reflection and action, aimed at developing the educational process both theoretically and practically .This development is a component of the relationship and integration with the achievements of contemporary pedagogy, as well as with the specificities of the discipline. It was approached by explaining the didactic components of teaching geography according to the epistemological foundations of the discipline and the stages of the geographical approach.

Keywords: Geography, didactics, didactics of geography, epistemology.

المقدمة: تأطير منيجي

1- مشكلة الدراسة

تندرج الجغرافيا ضمن عائلة العلوم الاجتماعية/الإنسانية (التاريخ – علم الاجتماع الأنتربولوجيا...) التي تتقاطع معها على مستوى موضوع دراستها وانشغالاتها، المتمثل في" المجال " باعتباره مكانا لأنشطة الإنسان كمستهلك ومنتج له. كما أنها تلتقي في دراستها " للمجال الجغرافي " مع مجموعة من العلوم الطبيعية (علوم الأرض أو الطبيعة – علم المناخ – علم التربة ...). وقد عرفت تطورا في مواضيعها، وأسسها، ومناهجها على مر تاريخها الإبستمولوجي. فمن خلال تتبعنا لمختلف مراحل التطور التاريخي للفكر الجغرافي، خاصة منذ أواخر القرن 19 م وطيلة القرن 20 م، يتضح جليا أن الجغرافيا انتقلت من مادة وصفية إلى مادة علمية بفضل اقتباسها مجموعة من الأدوات من العلوم الأخرى (العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية) واعتمادها على المنهج الكمي الاحصائي. وتضاف إلى إشكالية المقومات الإبستمولوجية للمادة (سواء على مستوى الموضوع أو المنهج) إشكالية المرجعية الديداكتيكية للجغرافيا المدرسية، المتمثلة في النقاش المستمر حول العلاقة فيما بين المعرفة العالمة (أكاديمية) والمعرفة المدرسية، وذلك من خلال رصد مختلف مكونات النموذج الديداكتيكي المعتمد في تدريس الجغرافيا المدرسية بالمغرب، باعتباره أداة للتفكير والفعل تسعى إلى المساهمة في تجويد الممارسة التربوية نظريا وعمليا وضمان تدريس فعال وهادف ومفيد لمادة الجغرافيا، وذلك في علاقة تكامل مع مكاسب البيداغوجيا المعاصرة ومع خصوصيات المادة.

2- أهداف الدراسة

تسعى هذه الدراسة إلى المساهمة في إغناء النقاش حول القضايا الابستمولوجية للجغرافيا المرتبطة بهويتها كحقل معرفي، بالإضافة إلى طرح إشكالية المرجعية الديداكتيكية للجغرافيا المدرسية بالمغرب، باعتبارها أداة للتفكير والفعل هدفها تطوير العملية التربوية نظريا وعمليا، وذلك من خلال ما يأتي:

* التعريف بالمحطات الكبرى للتطور التاريخي الذي عرفه الفكر الجغرافي من الجانب الابستمولوجي على مستوى النشأة والتطور والسؤال والموضوع.

* التعرف على أهم المدارس الجغرافية التي ظهرت أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

* إبراز تأثر الجغرافيا بالعلوم الأخرى طيلة هذه الفترة، خاصة العلوم الطبيعية والحقة وبباقي العلوم الاجتماعية والإنسانية.

* تسليط الضوء على المرجعية الديداكتيكية للجغرافيا المدرسية بالمغرب، من خلال التعرف على المكونات التي تميكل الخطاب الجغرافي.

3- تساؤلات الدراسة

استنادا إلى التأطير الوارد في مشكلة الدراسة وإلى المفردات المفتاحية، يمكن طرح التساؤل المركزي التالي:

– ماهي الأسس الابستمولوجية والمقومات الديداكتيكية المشكلة لمرجعية تدريس الجغرافيا المدرسية بالمغرب؟

وللإحاطة بأهم عناصر هذه الإشكالية وتوضيحها بما يخدم أهداف ومنهج هذا البحث، نطرح التساؤلات الفرعية التالية:

- ما هي الخلفية النظرية والابستمولوجية لتدريس الجغرافيا؟

- ما أهم سمات التطور الذي شهده الفكر الجغرافي عبر العصور التاريخية، لاسيما في أواخر القرن التاسع وطيلة القرن العشرين؟ وما أهم المدارس الجغرافية التي ظهرت خلال هذه الفترة؟
- أين تتجلى المرجعية الديداكتيكية للجغرافيا المدرسية بالمغرب؟
- ما هي المفاهيم المهيكلة لتدريس الجغرافيا المدرسية وفق مستجدات المادة؟
- ما هي خطوات نهج التفكير الجغرافي؟

4- التعريف بمفاهيم/ مصطلحات الدراسة

✓ **الديداكتيك:**

قبل التطرق لمفهوم ديداكتيك الجغرافيا باعتباره ديداكتيك خاص بأحد مواد التدريس، نرى أنه من الأجدر الحديث أولا عن مصطلح الديداكتيك.

*** المعنى اللغوي:**

الديداكتيك لفظ قديم، أصله من الكلمة اليونانية Didaktikos ، وتعني كل ما يختص بالتدريس أو التعليم.

*** المعنى الاصطلاحي:**

ظهر مصطلح الديداكتيك La didactique في النصف الثاني من القرن العشرين. ومن خلال التعاريف التي وضعت له في القواميس؛ كان معناه: فن التدريس أو فن التعليم. ومنذ ذلك الوقت، أصبح مصطلح الديداكتيك مرتبطا بالتعليم، دون تحديد دقيق لوظيفته.[1] وفي سنة 1988، اعتبره لالاند A.Laland فرعا من فروع البيداغوجيا، موضوعه التدريس.[2]

وعلى العموم، يعرف الباحثون الديداكتيك بأنه "إستراتيجية تعليمية، تواجه مشكلات كثيرة: مشكلات المتعلم، مشكلات المادة أو المواد، وبنيتها المعرفية، مشكلات الطرائق، ومشكلات الوضعيات التعليمية التعلمية"[3]. إذن، فمصطلح الديداكتيك حسب هذا التعريف إستراتيجية تعليمية، بمعنى أنه خطة، ترمي إلى تحقيق أهداف تعليمية. وتواجه هذه الإستراتيجية مشكلات المتعلم، وذلك عن طريق التفكير في هذا الأخير؛ لهدف تسهيل عملية تعلمه، الشيء الذي لا يمكن أن يتم إلا باستحضار حاجيات التلميذ، وتحديد الطريقة المناسبة لتعلمه، وتحضير الأدوات الضرورية، والمساعدة على ذلك؛ الأمر الذي يتطلب الاستعانة بمصادر معرفية أخرى، مثل: السيكولوجيا؛ لمعرفة هذا الفعل وحاجاته، والبيداغوجيا؛ لتحديد الطرق الملائمة. ويرمي هذا التنظيم المنهجي للعملية التعليمية التعلمية إلى تحقيق أهداف، تراعي شمولية السلوك الإنساني، أي أن نتائج التعلم ينبغي أن تتجلى على مستوى المعارف العقلية، والمواقف الوجدانية، والمهارات الحسية والحركية للمتعلم [4].

إن التعريف الاصطلاحي لمصطلح الديداكتيك، يدفعنا إلى التمييز بين الديداكتيك العامة والديداكتيك الخاصة.

*** الديداكتيك العامة (Didactique générale)**: هي إستراتيجية تواجه مشكلات الطرائق؛ بمعنى أنها تهدف إلى الإجابة عن سؤال: كيف ندرس؟ بغض النظر عن طبيعة المادة موضوع التدريس، حيث إن "أهم مشكل يعترض المربين، وخاصة المبتدئين منهم هو قضية طرائق التدريس: كيف ندرس؟ وما هي الطرق التي تؤمن أكثر نجاعة للعملية التدريسية؟ [5] ".

* **الديداكتيك الخاصة (Didactique spécifique)**: هي إستراتيجية تفكر في المادة، أو المواد، وبنيتها المعرفية؛ حيث إن ديداكتيك المادة الدراسية تفرض تأملا في المادة التعليمية، وصياغة فرضياتها الخاصة؛ انطلاقا مما توفره السيكولوجيا والسوسيولوجيا والبيداغوجيا. وتفرض أيضا الدراسة النظرية، والتطبيقية للفعل البيداغوجي في تعليم المادة [6].

من خلال كل ما سبق، يظهر أن الديداكتيك ليس فن التدريس فحسب؛ بل هو نظرية موضوعها التدريس، وهي علم متشعب بتشعب عملية التدريس؛ لأن هذه العملية هي أخطر الممارسات الإنسانية؛ لأنها موجهة إلى عقول الناشئة من جهة، ومن جهة أخرى لأنها تتعامل مع أقطاب متعددة، مثل: المدرس، والتلاميذ، والمعارف، والمناخ الحضاري، والسياسة التربوية، والقيم المؤسسية [7].

✓ **الجغرافيا:**

إن الجغرافيا علم قديم ظهر منذ ظهور الحضارات القديمة (الإغريقية، المصرية، البابلية والأشورية)، ورغم ذلك فإن تحديدَ موضوعها ما زال يشكِّل أكبرَ عقبةٍ تُواجِه المهتمِّين بها، ويرجع عدم الاستقرار والاضطراب في الموضوع إلى الاعتبارات التالية : خصوصيتها كعلمٍ يهتمُّ بالمجال والإنسان، عَلاقتها بعلوم مختلفة، اهتماماتها الظرفية والمستقبلية [8]. وفي محاولة منا لتجاوز الغموض والاضطراب الذي يطرحه هذا المفهوم، نرى أنه من المفيد أن نبسط مجموعة من التعريفات المختلفة للخروج باستنتاج عام.

- **تعريف معجم لاروس Larousse:**

المعنى الحرفي لكلمة جغرافيا (Géographie)ترجع في أصلها إلى اللغة اليونانية القديمة، وهي كلمة مكونة من مقطعين هما: "géo" والتي تعني الأرض، والمقطع الثاني"graphie" والتي تعني كتابة أو رسم أو تصوير، وبهذا يصبح معنى اللفظتين هما صورة الأرض. وهذا المفهوم في الحقيقة هو مفهوم كلاسيكي قديم للجغرافيا.

- **تعريف معجم لالند Lalande:**

جاء في معجم لالند المعروف في مادة الجغرافيا ما نصه: " الجغرافيا هي وصف لمختلف مناطق سطح الأرض، وتفسير لمختلف الظواهر الطبيعية والسياسية والاقتصادية في علاقتها بالمكان وفيما بينها "[9].

- **تعريف الجغرافي Pierre George:**

جاء في معجم الجغرافيا الذي قام بإنجازه نخبة من مشاهير الجغرافيين الفرنسيين بإشراف Pierre George ما يلي: " بخلاف الجيولوجيا فإن الجغرافيا علم بشري بعد أن كانت في بعض الأوقات علما رياضيا [تعريف وقياس أشكال الأرض وأبعادها] وهي تهدف إلى محاولة تدقيق طبيعة وكثافة العلاقات والروابط التي تطبع حياة المجتمعات البشرية وتكييفها. وتتحدد هذه العلاقات في نطاقات متدرجة أعلاها الكرة الأرضية (الجغرافية العامة) وأوسطها القارات (الجغرافية النطاقية والإقليمية) وأسفلها المجالات المكانية (الجغرافية المحلية أو الإقليمية). وتختلف هذه العلاقات بفعل صنفين من العوامل مختلفة كل الاختلاف: عوامل طبيعية (الجغرافية الطبيعية) وأخرى ناجمة عن تراكم أفعال الإنسان المتنوعة حديثا وقديما (الجغرافية البشرية). ومن الضروري، أن يعالج كل صنف من هذه المعطيات باعتبار مكانتها ضمن مجموعة العناصر المتصلة بالأرض وفق منظور جغرافي شامل بحيث يعمل الجزء على فهم الكل، وتتبلور هذه المعطيات بأكملها في الجغرافيا الإقليمية التي تتخذ من الخريطة الإقليمية وسيلة لتجميع ومقارنة وتنسيق المعلومات المستقاة من الدراسات التحليلية لحالة وتطور الأوضاع والعلاقات الخاصة بمكان معين قد يكون من الضروري تحديدها مسبقا [10].

- **تعريف اليونسكو:**

خلص إلى أن: "الجغرافيا لا تقتصر على إدراك العَلاقات بين الإنسان وبيئته فحسب، بل إنها تقوم على الوصف والتحليل والتعليل، وعلى توزيع مظاهر المشهد على سطح الكرة الأرضية؛ وهي بذلك علمٌ توليفي وتحليلي لجميع أنماط التفاعل بين الإنسان وبيئته" [11].

تتعدَّد إذن التعاريف الخاصة بحقل الجغرافيا، لكن التباين في التعاريف يعود بالدرجة الأولى إلى التجديد الذي عرفَتْه، إنْ على المستوى الإبستمولوجي من جغرافيا كلاسيكية محضة، تربط كل جزئياتها بالظواهر الطبيعية، إلى جغرافيا تفاعلية تربط بين الشقِّ الطبيعي والشق البشري في معالجة المجال الجغرافي، إلى جغرافيا تنفتح على باقي العلوم الإنسانية؛ فأفرزتْ لنا جغرافيات جديدة (جغرافية الطب – جغرافية الثقافة – جغرافية إعداد المجال – جغرافية السلوك...).

✓ **الإبستمولوجيا:**

- **الإبستمولوجيا لغة:**

من الناحية اللغوية كلمة إبستمولوجيا (épistémologie) متكونة من كلمتين يونانيتين ابستمي (épistémé) ومعناها علم، والثانية: لوغوس (logos) وهي بمعنى علم أيضا. فهي، إذن، معناها اللغوي علم العلوم أو الدراسة النقدية للعلوم [12].

- **الإبستمولوجيا اصطلاحا:**

لا يختلف المعنى اللغوي عن المعنى الاصطلاحي كثيرا، فالإبستمولوجيا هي نظرية في المعرفة كانت فيما سبق تختص بالبحث حول أسئلة تقليدية، ماهي حدود المعرفة؟ هل المعرفة ممكنة أم غير ممكنة؟ ماهي وسائل المعرفة؟ هل هي الحس أم العقل؟ أم الحس والعقل معا.....وغيرها ؟

وهذه هي الأسئلة التقليدية التي كانت تدور حولها مباحث الإبستمولوجيا في مؤلفات الفلسفة التقليدية. لكن، المقصود بالإبستمولوجيا هنا معنى خاصا غير المعنى التقليدي. نحن نقصد بالإبستمولوجيا هنا "نظرية المعرفة العلمية" تمييزا لها عن نظرية المعرفة التقليدية [13]. ومن هنا جاء تعريف لالاند:"Laland André" في معجمه الفلسفي للابستمولوجيا: "أن الابستمولوجيا هي الدراسة النقدية لمبادىء العلوم وفروضها ونتائجها بغرض تحديد أصلها المنطقي وبيان قيمتها وحصيلتها الموضوعية" [14]. فهي إذن: "عبارة عن المبحث الذي يعالج معالجة نقدية مبادئ العلوم المختلفة وفروعها ونتائجها، بهدف إرساء أساسها المنطقي، كما أنه يشهد تحديد قيمة العلوم، ودرجة موضوعيتها...."[15]

والخلاصة، أننا إذا أردنا تعريف الإبستمولوجيا تعريفا دقيقا نقول: إنها تلك الأبحاث المعرفية، فلسفة العلوم، نظرية المعرفة، مناهج العلوم، التي تتخذ من المعرفة العلمية موضوعا لها، بهدف الكشف عن مبادئها، ونشأتها ومقارباتها وتفسيراتها للواقع، بالخوض في تاريخها ومراحل تطورها مع الكشف عن فترات تقهقرها وأسباب هذا التقهقر بهدف الفحص الثاقب لتشكيل مفاهيم العلم وتطور دلالته ضمن مقاربة نقدية.

المحور الأول: المقومات الإبستمولوجية للجغرافيا

لقد شكلت مسألة المقومات الإبستمولوجية للجغرافيا هاجسا طغى على انشغالات الجغرافيين بغض النظر على الفترة التي عاشوها أو التيار الذي يمثله كل واحد منهم. فبالرغم من اختلاف مشاربهم وبالتالي المدارس التي ينتمون إليها، فإن القاسم المشترك بينهم كان دائما هو محاولة إبراز القضايا الأساسية التي تشكل موضوع دراستها وتميزها عن باقي العلوم.

سيتم في هذا المحور توضيح بعض ملامح التطور الذي عرفه الفكر الجغرافي سواء على مستوى الموضوع أو المنهج، بالإضافة إلى التطرق لأهم المدارس الجغرافية التي ظهرت أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (الجغرافيا الحديثة).

1- التطور التاريخي للفكر الجغرافي

مر الفكر الجغرافي بعدة مراحل مختلفة أدت إلى تطوره بشكل ملحوظ، ومن الممكن توضيح تلك المراحل من خلال الآتي:

1-1- العصور القديمة

شهدت هذه المرحلة قيام الحضارات القديمة مثل: حضارات وادي الرافدين وحضارة مصر القديمة والحضارة الفينيقية والفارسية والهندية والصينية، وكان الاجتهاد الجغرافي مرتبطا بالتطلع الشديد لتوسيع دائرة المعرفة بالأرض، ومكان الحياة فيها، وبالكون ومكان الأرض فيه[16]، بالإضافة إلى محاولة وصف الظواهر المنتشرة على سطح الأرض، سواء –كانت طبيعية أو مشيدة. خلال هذه الفترة، كان البحر الأبيض المتوسط مركز ثقل العالم القديم وقطب الرحى فيه، وكان هذا البحر يحيط به ثلاث قارات هي آسيا وأوروبا وأفريقيا [17].

ويعتبر الإغريق هم الأوائل الذين حاولوا إغناء وبلورة معارفنا الجغرافية وهم من أوجدوا كلمة جغرافيا، كما كان لهم السبق في استخدام الخرائط كوسيلة لتحديد ملامح المناطق التي سكنها الإنسان، حيث أنجزوا تمثيلا عقلانيا لسطح الأرض بالاستعانة بقياسات فلكية واستخدام خطوط الطول والعرض[18]، كما أنهم اهتموا بمعرفة الطبيعة المكانية للأشكال البشرية والطبيعية على سطح الأرض.

وأسس اليونان فروع الجغرافيا، خاصة الجغرافيا الرياضية التي وضعها طاليس مرورا بانكسمندر وأرسطوا لتصل إلى أوجها بفضل إيراتوستين الذي حاول إعطاء صورة هندسية تساعد على صنع الخارطة، حيث استخدم كل المعطيات التي استطاع أن يجمعها كالمواضع الفلكية المحدودة... واتجاه الطرق، والدروب المقاسة[19]. وعلى غرار اليونانيين، استفاد الرومان من المعرفة الجغرافية الإغريقية في توسعاتهم الجغرافية بعد أن أضافوا إليها الكثير، إذ اقترح استرابون أن الجغرافيا تهدف إلى وصف الأجزاء المعروفة من العالم المسكون لمعرفة أهمية أقاليمه، وتحديد أوجه التباين بينهما[20]، وقام بطليموس بجمع وتلخيص معظم المعلومات الجغرافية الإغريقية والرومانية، وابتكر طرقا لإسقاط سطح الأرض على خريطة.[21] كان لبطليموس تأثير كبير على الفكر الجغرافي وتطوره خلال عدة قرون تالية.

1-2- العصور الوسطى

خلال هذه المرحلة، تأثر الفكر الجغرافي الأوروبي بالمنطق والفهم والإدراك الديني، الذي أضاف إلى نظرة الإنسان وتطلعاته إلى المعرفة الجغرافية بعدا روحيا، فكان تأثير الكنيسة المسيحية واضحا في هذه الفترة، إذ كبلت إرادة الفكر، واستنكرت الفلسفة، وألزمت التفكير الجغرافي بالسير في طريق مسدود. غير أنه إذا كان العصر الوسيط بالنسبة للجغرافيا عند الأوربيين حقبة ركود وعصر تقهقر[22]، فإنه كان عند العرب والمسلمين عصر ازدهار وتطور، فقد حملوا لواء ترجمة الأعمال الجغرافية الإغريقية والرومانية، ووسعوا دائرة المعرفة الجغرافية بالأرض والكون من حولها، وعمقوا هذه المعرفة، وجعلوا من الجغرافيا علما موضوعيا [23]. وقد برزت بعض الأسماء المهمة من أشهرها اثنان من المغاربة هما: الإدريسي في القرن الثاني عشر[24]، الذي عرف بمهارته في صنع الخرائط إلى جانب ما كتبه في الجغرافيا الوصفية [25]، وابن بطوطة في القرن الرابع عشر والذي تميزت رحلاته بترك العديد من الملاحظات المهمة، لاسيما فيما يخص وصف المجتمع الإسلامي في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي[26].

والملاحظ أن الجغرافية عند العرب والمسلمين لم تخلوا من تقاليد الجغرافيا الوصفية، لكن يحسب لهم أنهم قاموا بتصحيح بعض أخطاء بطليموس بوسائل تجريبية، وقياس درجات العرض. أما الخرائط، فقد ظلت مبسطة كما تظهر عند ابن حوقل وغالبا ما تكون خالية من الإحداثيات.

1-3- مرحلة النهضة وعصر الأنوار

ساهمت الكشوفات الجغرافيا في أواخر العصر الوسيط وعصر النهضة (1400-1600) بدورها في إثراء المعرفة الجغرافية وذلك بتمويل من الحكومات الأوروبية لتحقيق مكاسب اقتصادية وسياسية ليتم إقامة مجموعة من الرحالات أشهرها تلك التي قادها مكتشفون مثل: كولمبس، فاسغو دي غاما، ماجيلان... وتم تثمينها باختراعات كاختراع مارتن بيهام كرة أرضية ثلاثية الأبعاد، ليشكل هذا الاختراع نقلة نوعية أمكن من خلالها التعامل مع شكل الأرض وما يوجد على سطحها من مظاهر بطريقة واقعية مقارنة بالخرائط المسطحة [27]. كما تم خلال هذه الحقبة، تحديد مفهوم علم الجغرافيا ومعناه ومغزاه، وتعمقت المعرفة الجغرافية من خلال الاجتهاد الجغرافي المتخصص الذي تولى نشأة المدارس الجغرافية العلمية، مثل: المدرسة الألمانية والفرنسية والانكليزية والروسية والأمريكية[28].

1-4- المرحلة المعاصرة

مثلث المرحلة المعاصرة مرحلة جد راقية في تطور الفكر الجغرافي، حيث ساهمت مجموعة من الحقول المعرفية الأخرى، في التأثير على اهتمامات الدراسات الجغرافية (التاريخ- البيولوجيا- الاقتصاد...)، خاصة في النصف الثاني من القرن 19م على يد بعض المفكرين الألمان مثل:Alexander Humboldt وKarl Ritter. كما برزت المدرسة الفرنسية في شخص رائدها Vidal de la Blache والذي يعتبر مؤسس الجغرافيا الحديثة والذي يمثل تيار"الإمكانية" «Possibilisme » والذي يختلف مع الألماني Ratzel صاحب "الحتمية الطبيعية " « Déterminisme ». وبذلك، بدأت بوادر الجغرافيا التي تهتم بالمجال وتفاعل الإنسان مع الظواهر الطبيعية [29].

1-5- ازدهار الفكر الجغرافي في القرن العشرين

تمثل في ظهور مدارس جغرافية أغنت النقاش حول هوية الجغرافيا، وتجلى ذلك في بروز تيارات متأثرة بالتطور الذي عرفته حقول معرفية أخرى (الاقتصاد – علم الاجتماع – علم النفس...) من جهة، وبالمذاهب الفكرية الإيديولوجية من جهة ثانية.

وقد أسفر هذا الحوار الفكري والجدل والاجتهاد الجغرافي، عن توظيف ثمرات الفكر الجغرافي في خدمة الحياة، ومن أهم نتائج هذا التوظيف جعل الجغرافيا علما تطبيقيا نتيجة الخبرة الجغرافية المتخصصة[30]، فظهر فرع جديد من فروع الجغرافية عرف باسم الجغرافية التطبيقية كفرع مستقل أثبت جودته في حل العديد من المشكلات الإنسانية[31] مثل: الاكتظاظ السكاني، مشكلات شبكات النقل والمواصلات، تخطيط المدن، القضايا الاقتصادية والإنتاج على اختلاف أنواعها كالزراعة والصناعة والتجارة والسياحة، والمشكلات البيئية والصحية والتعليمية، كما لديها إسهامات واضحة في المجالات العسكرية والمعارك الحربية.

نستنتج مما سبق، أن الجغرافيا انتقلت من الوظيفة التقليدية التي تهتم بوصف الظواهر الطبيعية والبشرية لدوافع استكشافية أو دينية أو توسعية إلى وظائف حديثة تتميز بتفسير العلاقات التفاعلية بين الظواهر الجغرافية الطبيعية والبشرية، وذلك باستعارتها الأساليب الرياضية والإحصائية لدوافع علمية.

2 – المدارس الجغرافية الحديثة

عرف الفكر الجغرافي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ازدهارا مهما في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية، مما أدى إلى ظهور مدارس جغرافية قومية ووطنية تبنت أفكارا جغرافية متنوعة.

2-1- المدرسة الألمانية:

يعتبر الفريد هتنر Alfred Hettner من أهم الفلاسفة الألمان الذين نادوا بالوحدة الجغرافية في التفكير مند النصف الأول من القرن 20، حيث أخذ بجميع أطراف الفلسفات المتضاربة وقام بصياغتها في ثوب جديد، كما عمل على إزالة الفروق أو الحدود القاطعة بين الدراسات الطبيعية والدراسات البشرية في الجغرافيا وبين الدراسات الإقليمية والدراسات العامة وذلك لأن الجغرافيا تعنى بدراسة الترابط المتباين بين الظواهر كما توجد على سطح الأرض، أي الوحدة الموجودة بين محتواها المتباين[32].

يرى هيتنر أن هدف الجغرافية معرفة الاختلافات المكانية بين جزء وآخر من سطح الأرض ومعرفة الأسباب التي أدت إلى ذلك والعلاقات بين الظواهر الطبيعية المختلفة. وقد قسم العالم إلى أقاليم طبيعية في كل قارة على أساس السطح والمناخ والنبات، ولعل هذا الاتجاه الإقليمي كان للخروج من مشكلة الازدواجية في الجغرافية، وعند دراسته لقارة آسيا مثلا قسمها إلى خمسة أقاليم طبيعية كبرى Macro Regions (شمال آسيا – جنوب آسيا – وسط آسيا – شرق آسيا – غرب آسيا) ثم قسم كلا من هذه الأقاليم الطبيعية إلى أقاليم طبيعية أصغر منها Micro Regions[33].

اهتم هيتنر بدراسة الأقاليم الطبيعية الصغرى ومعرفة شخصية كل منها على أساس ما تتوفر عليه من ظواهر بشرية مختلفة. استمرت الدراسة الإقليمية في ألمانيا تحت اسم اللاندشافت Geography Landschaft[34]، واعتبر الجغرافيين الألمان أن دراسة اللاندشافت هو الهدف الرئيسي في الدراسة الجغرافية[35]. إن هذه الإقليمية أو التصور الإقليمي قد تجاوب معها كثير من الجغرافيين في الدول الأخرى[36].

2-2- المدرسة الفرنسية

قام فيدال دي لابلاش Vidale de la Blache وهو جغرافي فرنسي كان له تأثير عظيم في تطوير الجغرافيا المعاصرة بتقديم فلسفة أخرى قائمة على النظرة الإقليمية للطبيعة الجغرافية. وقد نحى فيدال نحوا آخر غير الذي سلكه هيتنر Hettner فهو لم ينظر إلى البيئة الطبيعية كعامل منفصل عن الجماعات التي تسكنها بل نظر إليها كوحدة واحدة، إذ أن كل منها يكون مزيجا واحدا. وعلى هذا الأساس، قسم فرنسا إلى أقاليم سماها Les Pays وهي أقاليم متمايزة كل منها له طابعه الخاص، وقد جاء هذا الطابع نتيجة للتفاعل بين البيئة الطبيعية والجماعات البشرية التي تسكنها قرونا وقرونا. ولهذا، برز الطابع المميز لهذه الأقاليم بعضها عن بعض. وهو يرى أن الإنسان له من الأهمية في الدراسة الجغرافية ما لعناصر البيئة الطبيعية، وله من القدرات ما يجعله حرا اتجاه عناصر البيئة الطبيعية. وذكر فيدال أن هدف الجغرافية هو دراسة هذه الأقاليم المختلفة أرضا وسكانا[37].

نشر فيدال دي لابلاش الكثير من الكتب أهمها: "جغرافية العالم" ثم جاء أحد طلابه وهو لوسيان فيبر Lucein Febvre الذي قام بمهاجمة المذهب الحتمي (حتمية البيئة الطبيعية) ونادى بأن الإنسان ليس عنصرا سلبيا في البيئة التي يعيش فيها بل إن الإنسان له نشاطه، ذكائه وإمكانياته وأنه يستطيع أن يؤثر في هذه البيئة التي لا تملك حتميات تفرضها على الإنسان بل إن الإنسان حر تماما وهو السيد في البيئة التي يعيش فيها، وقادر كل القدرة على استخدام عناصرها التي تناسبه بدون حتمية من جانب البيئة الطبيعية التي يعيش فيها وسمى هذا المذهب ب "الإمكاني Possibilism"، وأصبح تلاميذ لوسيان فيبر يغالون في إمكانيات الإنسان ليقاوم ويعارض مذهب الحتمية السائدة

في عهده. لكن، هذا التطرف في المذهب الإمكاني أحدث ردود فعل وجدل ومناقشات حول أهمية العامل البشري في البيئة الجغرافية وبين الجغرافيين المؤيدين لمذهب الحتمية، حيث استمر الجدل بين الفريقين حتى الستينيات من القرن 20 أي بعد الحرب العالمية الثانية، وأخيرا جاء فريق آخر من الجغرافيين وقدم حلا وسطا بين المتطرفين من الجانبين وهو المذهب الترجيحي Probabilism أي أحيانا ترجح كفة البيئة الطبيعية وأحيانا ترجح كفة الإنسان أي تارة تكون الغلبة للبيئة الطبيعية وتارة أخرى تكون الغلبة للعنصر البشري[38].

إن هذا الزخم الفكري الذي وقع بين الجغرافة الفرنسيين جعل المدرسة الفرنسية ذات تأثير كبير في الفكر الجغرافي، كما أصبح لها تأثير بالغ في نشر الدراسة الإقليمية في دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

2-3- المدرسة البريطانية

لا يمكن عد الجغرافية الانكليزية خلال القرن التاسع عشر متطورة ومتقدمة لأن الجامعات البريطانية لم تهتم إلا بشكل محدود بالجغرافية، ومع ذلك ظهرت الجمعية الجغرافية الملكية في وقت مبكر سنة 1828م، مما أدى إلى تشجيع حركة الكشف الجغرافي وإرسال المكتشفين لارتياد القارات والأراضي المجهولة وركوب البحور والمحيطات للحصول على المعلومات الجغرافية، فظهر عدداً من الجغرافيين الذين أخذوا على عاتقهم تطوير الجغرافيا في بريطانيا أمثال (السير رودريك) الذي تولى رئاسة الجمعية الجغرافية وأكد على الجوانب الجيولوجية والأسس الطبيعية للجغرافية. وقبل الحرب العالمية الثانية، ظهر اتجاه جديد في المدرسة الجغرافية البريطانية وهو الميل نحو الجغرافية العلمية.

2-4- المدرسة الجغرافية الأمريكية

تأثرت الجغرافية الأمريكية بشكل عام في القرن التاسع عشر بالآراء الجغرافية الأوروبية وتم التركيز على الجغرافية الطبيعية والبشرية، فضلاً عن ظهور الاهتمام بالجانب الإقليمي. ومن أهم أقطاب الفكر الجغرافي الأمريكي، نجد الجغرافيان وليام ديفز ومس ســـامبل، حيث ركز الأول منهما على الجغرافية الطبيعية بينما ركز الآخر على الجغرافية البشرية في كتابة أبحاثهما.

أما بالنســـبة لجغرافيي الجيل الثاني، فكان من أبرزهم الجغرافي هنتكتون الذي اهتم بالجيولوجيا في بداية حياته الوظيفية، إلا انه تحول إلى دراسة المناخ وتأثيراته على الإنسان وألف كتابه الشهير (الحضارة والمناخ)، واهتم بتأثير التعاقب الجفافي على الجغرافية البشرية والتاريخية لقارة آسيا، وكان يعتقد أن تفوق ألمانيا حضارياً وصناعياً يرجع إلى مناخها المنعش، لكن نظرياته لقيت العديد من الانتقادات باعتبار أن محتواها غير واقعي. ومن الجغرافيين الذين برزوا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، نجد الجغرافي ايزايا بومان Isaiah Bowman الذي تأثر بآراء ديفز واهتم بدراسة النباتات والتربة والغابات ونشر أبحاثا في الجغرافية البشرية والطبيعية، وقد ترأس بومان الجمعية الجغرافية الأمريكية وظل رئيسا لها لأكثر من عشرين عاما (1917-1935). وهكذا، فإن الجغرافيين الأوائل الذين ظهروا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، استطاعوا أن يؤسسوا كيان المدرسة الجغرافية الأمريكية.

بعدما تطرقنا للتأصـيل الإبســتمولوجي للجغرافيا ولتطور الفكر الجغرافي خلال العصــور التاريخية، والتركيز على التيارات الجغرافية الحديثة والتي أغنت الإنتاج الفكري الجغرافي / الأدبيات الجغرافية، وتحديدا البحث العلمي الأكاديمي، ســنتطرق في المحور الثاني إلى الجوانب المتعلقة بالمقومات الديداكتيكية لتدريس الجغرافيا المدرسية بالمغرب.

المحور الثاني: المرجعية الديداكتيكية لمادة الجغرافيا المدرسية بالمغرب

سنتطرق في هذا المحور إلى المرجعية الديداكتيكية للجغرفيا المدرسية بالمغرب أو (الجغرافيا التربوية كما يفضل بعض المهتمين تسميتها). وذلك عبر بيان المقومات الديداكتيكية لتدريس الجغرافيا وفقا للأسس الابستمولوجية للمادة وخطوات النهج الجغرافي.

لكن وقبل الخوض في مختلف مكونات المرجعية الديداكتيكية التي تهيكل الخطاب الجغرافي، نرى أنه من الأجدر الإحاطة أولا بمفهوم ديداكتيك الجغرافيا، باعتباره ديداكتيك خاص بأحد مواد التدريس. ونظرًا لتنوع التعاريف المرتبطة بديداكتيك الجغرافيا، نورد فيما يلي بعض التعريفات المتفق عليها في هذا الشأن:

◆ **تعريف "بونوا روبير" (Benoît Robert)**: يقول: ربما ليس مِن السهل حاليًّا تحقيق إجماع حول تعريفٍ لديداكتيك الجغرافيا، وليس ذلك ضروريًّا إطلاقًا؛ لأنه في نظرنا ما زلنا في بداية تفكير أبستمولوجي يخص كلاًّ مِن الديداكتيك (العامة) والديداكتيكات (الخاصة)؛ مما يعني وجود مساحة لعدة وجهات نظر مهتمة بالمشاكل المرتبطة بنشر المعرفة الجغرافية، تطرح (ضِمنًا أو تَصريحًا) كل إشكالية ديداكتيك الجغرافية، بالنسبة للبعض كلُّ ديداكتيك (خاصة) يُمكن أن تُعرف كبيداغوجية مادة تدريس، وبالنسبة للبعض الآخَر (الأنغلو-ساكسون) تصبح ديداكتيك الجغرافية مرادفًا لـ Geography Teaching Methods؛ أي طرُق تدريس الجغرافية، وما يُهمُّهم أكثرَ هو الجانبُ العملي للفعل التعليمي [39].

◆ **تعريف "ديبلانك" (Desplanques P)**: يقصد بها طريقة ومنهجية التحليل بالانتقال مِن المعرفة الجامعية والمجتمعيَّة إلى المعرفة المدرسية (النقل الديداكتيكي)، وهذه الطريقة ترتبط – بنفس المنطق – بالعناصر الناتجة عن التجارب البيداغوجية والمفاهيم والطرُق والمعارف المؤسِّسة للجغرافيا [40].

◆ **تعريف "إيف أندري"(Yves Andrés)**: ديداكتيك الجغرافيا جملة مِن التقنيات التي تُيسِّر تنظيم وتسهيل عملية تدريس الجغرافيا، ويَحتلُّ المدرِّس قطب الرحى في هذه العملية؛ فهو الضامن لنجاحها، وبهذا يعدُّ رُكنًا ركينًا في سيرورة العمل الديداكتيكي، ويُضيف "أندري" أن نجاح ديداكتيك الجغرافيا رهينٌ باهتمامها بالجوانب الأساسية للمادة التعليمية، الجانب المتعلِّق بالأبحاث الجامعية النظرية أو التطبيقية، والجانب المتعلِّق بالمدرِّسين، وكذا بالجانب المتعلِّق بالتلاميذ [41].

◆ **تعريف "لورانس كورني" (Laurence Cornu)**: ترى أن ديداكتيك الجغرافيا تَعكِس تحولات واختلافات المدارس الجغرافيا الجامعية؛ إذ تُركِّز على الجانب المنهجي [42].

مِن خلال التعاريف السابقة، نَستشف أن ديداكتيك الجغرافيا ركَّزت على النقل الديداكتيكي للمعارف الجامعية، ونقلها إلى المعارف الجغرافية المدرسية، مِن خلال سيرورة تعليمية – تعلمية، يشارك فيها الأقطاب الثلاثة وهي القطب الأبستمولوجي (المعرفة الجغرافية) والقطب الديداكتيكي (المدرِّس) والقطب السيكولوجي (المتعلم).

بعد التعريف بمفهوم ديداكتيك الجغرافيا، سنتطرق إلى مختلف مكونات المرجعية الديداكتيكية التي تهيكل الخطاب الجغرافي (الشكل رقم 1)، وهي مكونات تم استيفاؤها من التطورات الابستمولوجية والمنهجية التي عرفتها الجغرافيا، خاصة في العقود الأخيرة، وتهدف إلى إكساب هذا الحقل ديداكتيكا خاصا به يساعد على تجاوز الهوة بين الجغرافيا كحقل علمي، والجغرافيا كمشروع تربوي تتحقق من خلاله الأهداف التي أصبحت موكولة للجغرافيا في مجتمعاتنا العصرية اتجاه الناشئة.

الشكل رقم 1: النموذج الديداكتيكي لتدريس الجغرافيا

المصدر: الخطاطة المختزلة للنموذج الديداكتيكي المقترح من طرف الدكتور "امحمد زكور" لتدريس الجغرافيا بالتعليم الثانوي (ص: 162)

وبقدر ما تطبع هذه المكونات بالتكامل، يميزها كذلك التنوع لتهم جوانب مختلفة تكون في النهاية بناء مترابط العناصر، وتتجلى هذه المكونات حسب امحمد زاكور في:

- المفاهيم المهيكلة للخطاب الجغرافي.
- العمليات الفكرية للنهج الجغرافي.
- وسائل التعبير الجغرافي.
- مجالات الجغرافيا.
- الإنتاجات الجغرافية.

1- المفاهيم المهيكلة للخطاب الجغرافي

يعنى بالمفاهيم المهيكلة للخطاب الجغرافي تلك المفاهيم ذات الصلة بموضوع مادة الجغرافيا والتي تؤطر مكونات خطابها، سواء كان هذا الخطاب لفظيا أو عدديا أو أيقونيا أو كارطوغرافيا، فالخطاب الجغرافي تهيكله ثلاث مفاهيم رئيسة وهي كالتالي:

1-1- مفهوم المورفولوجيا

من المفاهيم العامة التي يتم استخدامها كمرادفات للمورفولوجيا هي الخاصيات/المميزات، والتي تهتم بالشكل الخارجي للظاهرة (النوعي والكمي...). تعنى المورفولوجيا بدراسة الظواهر الجغرافية من حيث (الشكل، البنية والبعد/الحجم) .

***الشكل**: يتعلق بالصفات الخارجية للكيان المدروس (شكل الأرض) والتي ترتبط بجملة من القيم حسب طبيعة الظاهرة الجغرافية.

***البنية**: يتعلق الأمر بالمكونات الداخلية للظاهرة الجغرافية مثلا البنية الجيولوجية/العقارية... وهي متعددة القيم حسب طبيعة الظاهرة والمقياس المعتمد في الدراسة، والملاحظ أن بعض الكتابات الجغرافية تستخدم مفهوم "طبيعة" الظاهرة لكنها تظل أقل تحديدا (الشكل والبنية: الخصائص النوعية للظاهرة).

*الحجم/البعد: يختزل معطيات كمية حول الظاهرة المدروسة كالمسافة والمساحة والكثافة والصبيب والعدد... ويساهم استخدام المعطيات الإحصائية/الكمية من تدقيق عملية الوصف.

يمكن مفهوم المورفولوجيا من تدقيق هوية الظاهرة الجغرافية وإغنائها، ويتقاطع مع المفهومين الآخرين وهما التوطين والحركة.

1- 2- مفهوم التوطين

يتضمن مفهوم التوطين مجموع المنبهات التي تمكن من تحديد القاعدة الترابية التي تتوطن عليها الظاهرة الجغرافية.

ويشكل مفهوم التوطين هاجسا في الفكر الجغرافي يرتبط بطرح السؤال: أين؟ فقد اعتبر فيدال دولابلاش (V-De la blache) أن "الجغرافيا هي علم مكان"، في إشارة إلى أهمية إشكالية التوطين من أجل التحليل الجغرافي. ويمكننا التمييز بين نوعين من أشكال التوطين الجغرافي:

*التوطين المطلق: يعنى بتحديد موقع الكيان الجغرافي على سطح الأرض استنادا إلى الإحداثيات الجغرافية، مثلا تحديد نطاق مناخي (خطوط العرض أساسا).

*التوطين النسبي: التوطين في علاقة بالمعطيات الجغرافية، يعنى بموقع الكيان المدروس بالنسبة لكيانات جغرافية مجاورة أو بعيدة، مثلا موقع المغرب بالنسبة للقارة الإفريقية أو تحديد موقع سلسلة جبلية داخل مجال معين...

1-3- مفهوم الحركة

يشمل مفهوم الحركة مجموع الملاحظات التي تأخذ بعين الاعتبار، التحولات والتطورات الطارئة على الظاهرة الجغرافية في الزمن والمكان.

*الحركة في الزمان: تعني حركة الظاهرة الجغرافية في الزمان وتطورها عبر مختلف المراحل وصولا إلى وضعيتها الحالية. فالمجال الجغرافي يحمل بصمات الماضي البعيد، وتمكن دراسة هذه البصمات إعادة تركيب تطور الظاهرة الجغرافية.

*الحركة في المجال: نعني بالحركة في المجال تطور الظواهر الجغرافية فوق المجال، فهو يتصل بنشاط المجال الجغرافي وحركيته عن طريق التحول أو التغير الذي طرأ عليه عبر المجال.

2- العمليات الفكرية للنهج الجغرافي

يقصد بالنهج الفكري لمادة الجغرافيا المنهجية التي تعتمد عليها في معالجة الظواهر الجغرافية باعتبارها منتوجا اجتماعيا يترجم العلاقات الاجتماعية من خلال الممارسة المجالية ومختلف أشكال إنتاج وهيكلة المجال، وذلك برصد ميكانزماته والقوى الاجتماعية الفاعلة في إنتاجه وهيكلته.

وتشمل ثلاث عمليات تخضع كل منها لخطات منهجية محددة. هذه العمليات هي: الوصف، التفسير، التعميم.

2-1- الوصف الجغرافي (la description géographique)

الوصف عملية قديمة قدم الجغرافيا، وقد هيمنت هذه العملية على الإنتاج الجغرافي منذ انطلاق هذا العلم إلى القرن التاسع عشر، إذ لقبت بألقاب تعكس دورها الوصفي لمكونات سطح الأرض، ورغم بقائه الوظيفة المهيمنة على الجغرافيا. فقد عرف الوصف تطورا في

هويته، فبعد أن كان خلال العصرين القديم والوسيط هدفا في حد ذاته أصبح خلال العصر الحديث يخضع لمنهجية تميزه عن الوصف الكلاسيكي.

من خلال معالجته للأدبيات الجغرافية، عرف ذ.زكور الوصف الجغرافي بأنه: "عملية فكرية تتبنى التحليل والتركيب من أجل إبراز المنبهات المتعلقة بالظواهر المجالية ورصدها من حيث مورفولوجيتها، مكانها، وحركتها، ويعتمد الوصف على مختلف وسائل التعبير الجغرافي"[43]. من مزايا هذا التعريف أنه يربط الوصف بالمفاهيم المهيكلة للخطاب الجغرافي (المورفولوجيا، التوطين، الحركة)، ويحدد بدقة الجوانب التي ينكب عليها الوصف ونوع المعالجة الفكرية التي تنحصر في إبراز الأشياء من حيث هي كذلك دون تفسيرها واكتشاف مبادئها لأن ذلك من اختصاص عمليتي التفسير والتعميم.

2-2- التفسير الجغرافي (L'explication géographique)

منذ منتصف القرن العشرين، عرفت الجغرافيا نقلة نوعية على مستوى اهتماماتها وتوجهاتها، حيث لم تعد تقتصر على الوصف وترتيب الظواهر، بل تعدت ذلك إلى تفسيرها عبر الاهتمام بالعامل أو العوامل المسببة في وجود ظاهرة جغرافية معينة أو الصفات التي تتصف بها من حيث المورفولوجيا والمكان والحركة.

على خلاف الوصف، لم تعط الأدبيات الجغرافية تعريفا دقيقا للتفسير لاختلاف الجغرافيين حوله، رغم أنه يوجد شبه توافق بينهم يحوم حوله باعتباره بحثا عن الأسباب/العوامل. فمثلا يرى "ماكس ديرو" أن "الجغرافيا هي علم تفسيري، من خلال البحث عن الأسباب، وترتيبها عند تعددها، كما أنها لا تتوانى عن التعبير عن العوامل الذاتية/الأسباب الشخصية"[44]. من مزايا هذا التعريف، أنه ينكب على ظواهر ملموسة شأنه في ذلك شأن الوصف الذي يقدم العناصر للتفسير الذي يبحث على نوع العلاقة بين العناصر المذكورة، إلا أن هذه العلاقة ليست دائما أحادية الاتجاه، ذلك أن الظاهرة الواحدة تؤثر وتتأثر في إطار شبكة من العلاقات تربطها بباقي الظواهر المجالية لذلك تتعدد أصناف التفسير الجغرافي.

معنى ذلك أن التفسير لا يقوم بذاته بل يرتبط مع الوصف والتعميم ويتمفصل معهما، ويتلخص دور الوصف في تقديم العناصر حتى يتسنى للتفسير الوقوف على نوع العلاقة التي تربط بين عناصر الظاهرة الجغرافية المدروسة. وبالتالي، فإن الوصف يشكل نقطة انطلاق التفسير، حيث يقدم له معطيات عن خصائص الظاهرة المراد تفسيرها ومعطيات تخص العامل المفسر. ويتلخص دور التعميم –الذي يهتم بالنماذج النظرية التي صممت في ضوء دراسة العديد من الحالات الخاصة– في وضع إطار نظري مرجعي رهن إشارة التفسير حتى يتسنى لهذا الأخير اقتناء وتطبيق الجهاز النظري الملائم قصد إبراز نوع ومتانة العلاقة التي تربط بين الظواهر المجالية.

2-3- التعميم الجغرافي (La généralisation géographique)

يعتبر التعميم عملية فكرية مهمة ضمن النهج الجغرافي يتم من خلالها بناء النظريات والمبادئ والاقترحات المجردة، فهي مرحلة يتجاوز فيها التفكير الحالات الفردية والأحادية من أجل الوصول نحو "الشمولية/العمومية". وتمكن هذه العملية الجغرافي من أجهزة نظرية تنير له عمليتي الوصف والتفسير.

ميز الأستاذ امحمد زكور بين نوعين من التعميم:

* **التعميم الخاص بالمفاهيم**: يعنى بمعالجة وصقل المفاهيم المستعملة في تحديد الظواهر الجغرافية ويطور في النهاية الوظيفية للجغرافيا. يمكن إبراز التعميم المفاهيمي بطريقتين:

– الطريقة الأولى: تتعلق بتطبيق المعايير الموجودة لتعريف ظاهرة جغرافية والتي يدل عليها هذا المفهوم... وهي الطريقة الأكثر استعمالا ضمن التعميم، مثلا هضبة (المعايير: انبساط الشكل/تعمق الأودية...).

– الطريقة الثانية: تتعلق باقتراح المعايير بهدف تعريف المفاهيم الجديدة ضمن النظريات والمبادئ... وهي مهمة معقدة، مثلا نظرية التعرية لدايفس أو نظرية الأمكنة المركزية لكريستالير...

* **التعميم الخاص بالمبادئ والنظريات:** يهتم هذا النوع بوضع مبادئ وقوانين ونظريات قصد إبراز العوامل التي تتحكم في ظاهرة أو مجموعة من الظواهر المجالية. وتستند هذه العملية على تجربة غنية بالعبر المستخلصة من خلال وصف وتفسير العديد من الظواهر إن على مستوى الزمان أو على صعيد المجال الأرضي.

عموما، فإن التعميم الخاص بالمفاهيم يعطي معنا للوصف، ويرتقي بأنشطة التفسير من الخاص إلى العام من خلال استخلاص الثوابت. أما على مستوى التعميم الخاص بالنظريات، فإنه يمكن من اختزال الخطاب الجغرافي فيما يتعلق بمجال معين. وإذا كانت الأنشطة الوصفية والتفسيرية تشكل جسم الجغرافيا، فإن التعميم يشكل روحها.

يتشكل النهج الجغرافي من عمليات فكرية متكاملة تفي بمهمة الكشف عن الظواهر المجالية من وجهة النظر الجغرافية، فالوصف يقدم الظواهر من حيث مورفولوجيتها وتوطينها وحركتها، والتفسير يبرز أسباب تواجد الظواهر بالصفات التي هي عليها، في حين يعمل التعميم في إطار جدلية تربطه بالوصف والتفسير على بناء أجهزة نظرية مشكلة من مفاهيم ومبادئ ونظريات من أجل الرفع من متانة ومردودية الدراسات الجغرافية (الشكل رقم 2).

الشكل رقم 2: خلاصة تركيبية لخطوات النهج الجغرافي

3– وسائل التعبير الجغرافي

لمعالجة قضايا جغرافية معينة ودراسة نتائجها، نحتاج لاستخدام أدوات منهجية خاصة بالمادة كالخرائط والرسومات الكرطوغرافية والصور (الفوتوغرافية، الطبوغرافية، الفضائية) والنصوص وأدوات منهجية خاصة كالإحصائيات والمبيانات...

إن توظيف هذه الأدوات باعتبارها قنوات التواصل المستعملة في الخطاب الجغرافي يسعى إلى تحقيق هدفين مركزيين:

– تمكين المتعلمين (ات) من ضبط صدق المعرفة الجغرافية والتحكم في الأدوات وفي تقنيات تحليلها.

– تمكين المتعلمين (ات) من بناء تأسيس هذه الأدوات في بعض الحالات الدراسية: (وضع رسوم تخطيطية، ملأ الخرائط الصماء...).

وبالتالي، فوسائل التعبير الجغرافي تخدم عمليات فكرية في إطار المنهج الجغرافي من جهة، وتقدم المعرفة الجغرافية بطرق تختلف من حيث فائدتها وخصوصياتها من جهة أخرى.

تتعدد أنواع وسائل التعبير الجغرافي وتصنف كالتالي:

*التعبير اللفظي: يعتمد الكلمة في تقديم الكيانات الجغرافية وذلك بإبراز صفاتها النوعية والقيم المرتبة لها.

*التعبير العددي: يوظف الأرقام في إبراز الجوانب الكمية والقيم المرتبة .

*التعبير المبياني: وينقسم إلى قسمين: رسوم بيانية وأشكال كرتوغرافية، علما أن هذه الأخيرة تمتاز بطاقات كبيرة في اختزال المعلومات النوعية والكمية مع توطينها.

4– مجالات الجغرافيا

يقصد بمجالات الجغرافيا تلك التقسيمات التي تخضع لها الجغرافيا دون أن يؤثر ذلك على النظرة الشمولية لها كمنتوج اجتماعي وليد تفاعل مكونات طبيعية وبشرية، وقد حدد احمد زكور هذه المجالات في ثلاثة: (الجغرافيا الطبيعية، البشرية والإقليمية). رغم أن النظرة الشمولية للمجال الجغرافي تبقى هاجسا أساسيا، فإن البحث الجغرافي انقسم إلى فروع يصعب أحيانا كثيرة ضبط حدودها، وقد وضعت هذه الفروع من أجل إشباع طموحات الجغرافيا.

5 – الإنتاجات الجغرافية

حسب احمد زكور يقصد بالإنتاجات الجغرافية الحصيلة المعرفية التي حققتها الجغرافيا من خلال الدراسات المجالية وهي تشمل الأحداث الجغرافية والمفاهيم الموضوعية والاقتراحات المجردة، والتي يمكن توضيحها كما يلي:

*الأحداث الجغرافية: تعني الأوضاع التي يوجد عليها المجال المدروس. ويتم الكشف عنها من خلال مقاييس محددة ومرجعية نظرية.

*المفاهيم الجغرافية: وهي موضوعاتية تشمل المفردات الاصطلاحية التي تستعمل في تحديد هوية الكيانات المجالية حسب المرجعية المعتمدة. تؤدي هذه المفاهيم دورا كبيرا في التواصل العلمي الشفاف.

*الاقتراحات المجردة: تعني الإطارات النظرية المجردة المصاغة أو المطبقة في سياق دراسة الظواهر المجالية، وتشمل المبادئ والقوانين والنظريات. وتقدم هذه الإطارات النظرية نماذج تفسيرية تنير طريق الدراسة.

خلاصة عامة

انطلاقا من تحليلنا للمحورين اللذين هيكلا هذه الدراسة، يمكن أن نخلص إلى الاستنتاجات الآتية:

*** على المستوى الابستمولوجي:**

الذي تمت دراسته من خلال المحور الأول، حيث مهدنا للموضوع بالحديث عن تطور كلمة الجغرافيا وخلصنا إلى أنها تثير العديد من الأسئلة حولها، ومرد ذلك إلى تعدد مشاربها، واختلاف مناهجها وكذا تموضعها في مفترق طرق العلوم، بفعل طبيعة المواضيع التي تتناولها. وعلى الرغم من اختلاف التعريفات لعلم الجغرافيا، إلا أنها واصلت تمحورها بصفه عامة حول دراسة الإنسان والأرض باعتبارها موطنا للإنسان وإدراك ما بينهما من علاقات على مستوى التوزيع والتحليل والتعليل. كما قمنا بتقديم نظرة معرفية للجغرافيا من جانب ابستمولوجي على مستوى النشأة والتطور والسؤال والموضوع، وكذا من جانب الإشكالية والمنهج. وختمنا هذا المحور بالتطرق إلى أهم المدارس الجغرافية التي ظهرت في أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م والتي أغنت الإنتاج الفكري في إطار ما سمي بالجغرافيا الجديدة أو الحديثة.

*** على المستوى الديداكتيكي:**

الذي تمت دراسته من خلال المحور الثاني، لقد تبين من خلال مقاربة المقومات الديداكتيكية لتدريس الجغرافيا المدرسية بالمغرب، أن الجغرافيا تعد من بين البرامج الأساسية في المنهاج التربوي المغربي وفي جميع المراحل التعليمية، نظراً لأهميتها في بناء الأبعاد العقلية والاجتماعية والشخصية للمتعلمين. ولتحقيق هذه الأهداف التربوية، فإن الجغرافيا كعلم تحتاج إلى مهارات وطريقة علمية في التفكير (التفكير الديداكتيكي). وينطلق هذا التفكير الديداكتيكي من معالجة مكونات الخطاب الجغرافي الذي يملك موضوعا خاصا به والذي يتمثل في المجال، ومنهجية تضبط مجال البحث والدراسة وتقوم هذه المنهجية على ثلاثة أنشطة فكرية هي:(الوصف التفسير والتعميم). ويتم التعبير عن المعرفة الجغرافية بوسائل مختلفة يخضع كل واحد منها لمقاييس وضوابط محددة. وأخيرا، تتميز المعرفة الجغرافية بمنتوجها (حقائق، مفاهيم، اقتراحات تجريدية) الذي يساهم في الرأسمالي المعرفي.

الهوامش:

[1] – أحمد أوزي (2006): المعجم الموسوعي لعلوم التربية، مجلة علوم التربية، الرباط، ص: 140.

2 – عبد اللطيف الفارابي وآخرون (1994): معجم علوم التربية . مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك، سلسلة علوم التربية،عدد 9 و10، دار الخطابي للطباعة والنشر، ط1 ،الدار البيضاء، المغرب. ص:68.

[3] – محمد مكسي (2003): الدليل البيداغوجي . مفاهيم مقاربات، منشورات صدى التضامن،الرباط، المغرب، ص:35 .

[4] – عبد اللطيف الفارابي وآخرون/المرجع نفسه، ص:69.

[5] – أحمد شبشوب (1997): مدخل إلى الديداكتيك . الديداكتيك العامة، دفاتر التربية، عدد 4، رمسيس . الرباط، ص: 11.

[6] – عبد اللطيف الفارابي وآخرون/المرجع نفسه، ص:70.

[7] – أحمد الشبشوب/المرجع نفسه، ص: 7.

[8] – محمد مبشور (1996): الجغرافية الجديدة انقلاب في منظور الفكر الجغرافي، المجلة التربوية، العدد السادس، ص:121.

[9] – محمد بلفقيه (2002)، الجغرافيا القول عنها والقول فيها، الطبعة الأولى، دار نشر المعرفة، الرباط ،المغرب، ص:12.

[10] -GEORGE, P. (1970) : *Dictionnaire de la géographie*, Éditions Presses Universitaires de France (PUF), Paris, p:36.

[11] - UNESCO (1970): *Source Book for Geography Teaching*, Fifth Edition, Longmans, London, England, PP. 1, 2.

[12] – علي حسين كركي (2010): الإبستمولوجيا في ميدان المعرفة، شبكة المعارف، الطبعة رقم:1، بيروت، لبنان، ص: 15.

[13] – حسين شعبان (2013): "برونشفيك وباشالر بين الفلسفة والعلم، دراسة نقدية"، دار التنوير، بيروت، لبنان، الطبعة رقم:1، ص: 993.

[14] – محمد وقيدي (1987): ما هي الإبستمولوجيا،مكتبة المعارف، الرباط،المغرب، ص:23.

[15] – حسن عبد الحميد (1987): مقدمة كتاب، روبير بلانشيه: نظرية المعرفة العلمية (الإبستمولوجيا)، ترجمة حسين عبد الحميد، مطبوعات جامعة الكويت، ص:7.

[16] – صالح الدين الشامي (1980): الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، منشأة المعارف، الاسكندرية، ص:44.

[17] – رينيو كلوزيي (1982): تطور الفكر الجغرافي، تعريب عبد الرحمان حميدة، دار الفكر، بدون طبعة، ص:15.

[18] – رينيو كلوزيي، المرجع نفسه، ص: 13.

[19] – رينيو كلوزيي، المرجع السابق، ص:27.

[20] – جبريل أمطول (2012): الجغرافيا الطبيعية: تطور الجغرافيا الطبيعية، مجلة كلية الآدب – جامعة بنغازي، العدد 36، ص:5.

[21] – جبريل أمطول، المرجع نفسه، ص: 5 – 6.

[22] – جبريل أمطول، مرجع سابق ص:39.

[23] – صلاح الدين الشامي، مرجع سابق، ص:45.

[24] – رينيو كلوزيي، مرجع سابق، ص:28.

[25] – جبريل أمطول، مرجع سابق، ص:6.

[26] – رينيو كلوزيي، مرجع سابق، ص:38.

[27] – جبريل أمطول، مرجع سابق، ص:6.

[28] – صلاح الدين الشامي، مرجع سابق، ص:45.

[29] – عبدالمولى بلفقيه: "الجغرافيا بين البحث عن هويتها الإبستمولوجية ووظيفتها التربوية"، موقع نقابة مفتشي التعليم. ص:4. اطلع عليه بتاريخ:2024/07/14. على الرابط الالكتروني:

https://www.synd-inspect.com/images/pdf/geograbelafqih.pdf

[30] – صلاح الدين الشامي: مرجع سابق، ص:46.

[31] . غانم سلطان أمان (2006)، محاولة لفهم الجغرافية التطبيقية، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، العدد 573، ص: 48.

[32] – محمود أبو العلا (2008): الفكر الجغرافي، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة، مصر، ص: 33.

[33] – المرجع نفسه، ص: 33.

[34] – اللاندشافت أو اللاند سكيب تعني المشهد حسب اللغة الألمانية ورد عند صفوح خير،الجغرافية موضوعها ومناهجها وأهدافها، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان: 2002، ص: 62-63.

[35] – محمد بلفقيه،الجغرافيا القول فيها والقول عنها، مرجع سابق، ص: 113.

[36] – محمد بلفقيه، الجغرافيا القول فيها والقول عنها، مرجع سابق، ص:109.

[37] – محمد بلفقيه، الجغرافيا القول فيها والقول عنها، مرجع سابق، ص: 107.

[38] – محمود أبو العلا، الفكر الجغرافي، مرجع سابق: ص 35 – 36.

[39] - ROBERT, B. (1970): Pour une nouvelle conception de la didactique de la géographie. Dans : *Cahiers de géographie du Québec*, Vol. 14, N° 31, Canada, pp. 95-99.

40 - DESPLANQUES, P. (1991): La didactique de la géographie. Dans: L'Information *Géographique*, Vol. 55, N° 2, Paris, France, pp. 45-48

41 - ANDRE, Y. (1992): Didactique de la géographie. Dans : A. BAILLY, R. FERRAS, D. PUMAIN (dir), « Encyclopédie de géographie », Éditions Economica, Paris, France, pp.327-346.

42 - CORNU, L., VERNOUS, A. (1992): *La didactique en questions*, Publications du Centre Nationale de Documentation Pédagogique (CNDP) : Hachette éducation, Paris, France, p 94.

[43] - ZAGOR, M. (1990): *Géographie et Formation intellectuelle : Contribution à l'élaboration d'un modèle didactique et à son application au niveau de l'évaluation de licenciés Marocains au seuil de la profession d'enseignant.*Thèse de doctorat en Sciences de l'Éducation, Université Libre de Bruxelles, Belgique, Faculté des Sciences Psychologiques et de l'Éducation, p :45.

44 -DERRUAU, M. (1966): Précis de géographie humaine, Éditions Librairie Armand Colin, Vol. 1, Grand in-8°, Paris, France, p :18.